الحراك المكاني لعاصمة الدولة العباسية

الأستاذ المساعد الدكتور
عبدالرحمن على عبدالرحمن
كلية الآداب بجامعة البصرة

ملخص:

إنَّ الموقع الجغرافي الذي تتوافر فيه مقومات قيام الدولة ويساعد في تحقيق أهدافها السياسية والعسكرية والتجارية يُعد موقعاً ذو قيمة كبيرة؛ فالموقع نتاج القيمة الموضعية، فحيوية الموقع الجغرافي هو امتداد لقيمة الموضع الحيوي، تهدف الدراسة إلى إظهار أهمية المواقع الحيوية لنشأة العواصم واستمرارها، وقد توصلت الدراسة إلى نتائج عدة من أهمها، ان قيمة المكان تتغير تبعاً لتغير خصائصها المكانية، فيزدهر المكان في وقت ما ليمارس دوره بشكل مؤثر، وقد يصاب المكان بالضعف ممّا يؤثر على سعة حدوده.

مفاتيح الكلمات: الموقع، والعاصمة.

Abstract

The Spatial Mobility of the Capital of the Abbasid State

The location that offers the requirements for the establishment of the state and achieving its political, military and commercial objectives is a location of great importance; the location is a result of the local value, the vitality of the geographical location is an extension of the value of the vital position. The study aims to show the importance of vital locations to the emergence and survival of capitals. The study has reached at several results the most important of which is that the value of the place changes depending on the change of its spatial characteristics, the place flourishes at some time to exercise its effective role, or it may be weakened, which affects its borders limits.

Keywords: location and capital.

المقدمة:

استطاع العباسيون بعد القضاء على الدولة الأموية من تأسيس دولتهم التي توسعت بين سنتي (132هـ/922هـ) لتشمل مناطق عديدة وهذا التوسع لابد أنْ يكون بناءً على دوافع أو محفزات مكانية ساهمت في تمدد الدولة العباسية مكانياً. إنَّ فهم الأحداث السياسية وامتداداتها المكانية يرتبطُ ارتباطاً جذرياً بالشخصية الموقعية وهي إحدى أهم القضايا في دراسة الجغرافيا التاريخية السياسية؛ فالموقع الذي تتوافر فيه مقومات قيام الدولة لتحقق أهدافها السياسية والعسكرية والتجارية يُعد موقعاً ذْا قيمة كبيرة؛ وهذا الموقع هو نتاج القيمة الموضعية المضافة للموقع، ومن هذا نتوصل إلى أنَّ حيوية الموقع الجغرافي امتداد لقيمة الموضع الجغرافي الحيوي.

مشكلة الدراسة:

يمكن صياغة مشكلة الدراسة على النحو الآتي:

- لماذا انتقلت عاصمة الدولة العباسية من موضع إلى آخر؟

- كيف تم اختيار المواضع لتكون مقراً للعاصمة؟
- ما عوامل الشد والجذب التي مارست دورها في ترك موضع واختيار موضع آخر؟

فرضية الدراسة:

اعْتُمِدَتْ ثلاث فرضيات من أجل التوصل لحل هذه المشكلات، وهي:

- إنَّ المواقع الحيوية منحت الاستمرارية للعاصمة على الرغم من إحاطتها بمواقع منافسة لها.
- إنَّ المواقع الحيوية استمدت صفتها من مواضعها الحيوية.
- تُحاط المواقع الحيوية بمواقع منافسة، وتسعى الأخيرة للتأثير السلبي عليها وبتعاقب المراحل التاريخية.

هدف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى إظهار أهمية المواقع الحيوية لنشأة العواصم واستمرارها؛ نتيجة لما تمتلكه من خصائص موضعية حيوية، وبيان دورها في استفزاز القوى المحيطة بها ممّا خلق مواقع منافسة تسعى لسلب مقومات العاصمة على مر التاريخ.

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية الدراسة في معرفة السر الكامن وراء اختيار مواضع المدن لتكون عاصمة الدولة العباسية من خلال استكشاف المصادر التاريخية لتلك المرحلة التاريخية من اجل معرفة الأسباب الحقيقية التي على ضوئها تم اختيار تلك المواضع لتكون عواصم الدولة العباسية.

حدود منطقة الدراسة:

تشمل حدود منطقة الدراسة مكانياً مواقع كل من هاشمية الكوفة وهاشمية الأنبار وبغداد، وسامراء والمتوكلية؛ ومن ثَمَّ تتحرك أفقياً لتتخذ القاهرة موقعا، إذن تمتد من الكوفة جنوباً إلى سامراء شمالاً مروراً ببغداد وبشكل مستطيل لتحافظ على موقها الوسط ضمن الدولة العباسية المترامية الأطراف، أما الحدود الزمانية للدراسة فتمتد من تأسيس الدولة العباسية في سنة (132هـ) ولغاية سقوطها على يد الدولة العثمانية في سنة (/922هـ)، وجاء اختيار هذه المدة بسبب الحراك الديناميكي لموقع عاصمة الدولة العباسية ضمن حدود الدولة، من أجل المحافظة على مكانتها في التاريخ لأطول مدة، إذ بلغت مدة حكمهم (790) سنة لتكون أطول دولة إسلامية منذُ تأسيسها في الكوفة حتى سقوطها في مصر.

منهجية الدراسة:

تم اعتماد المنهج التاريخي؛ للكشف عن تأثير المرحلة التاريخية في اختيار مواقع العاصمة ومن ثَمَّ انعكاساتها السياسية على الدولة، وتم اختيار المنهج التحليلي المكاني؛ لمعرفة أسباب اختيار مواضع بعينها لتكون عاصمة الدولة العباسية دون غيرها.

هيكلية الدراسة:

تسعى هذه الدراسة الى ما يأتي:

أولاً: الشخصية المكانية للعاصمة ووظيفتها

ثانياً: الحراك الموضعي للعاصمة

ثالثاً: الفعل الموقعي للعاصمة

أولاً: الشخصية المكانية للعاصمة ووظيفتها

يعد المكان جغرافياً الحيز الذي يتم فيه حدوث التبادل أو التفاعل في شتى مجالات الحياة، أما تاريخياً فيعد المكان الحيز الذي تحدث فيه شتى الصراعات أو النزاعات التاريخية، وقد تتوافر شروط نجاح الدور المكاني وظهوره المتميز في أي مرحلة من مراحل التاريخ ولكن قد لا يحدث ذلك الظهور؛ لتضافر أسباب عديدة تحول دون الاهتمام به، وإنَّ أهمية الحيز المكاني ليست مرتبطة بحيوية الموقع وخصائصه الموضعية فحسب بل مرتبطة بالعامل البشري ايضاً إذْ يمارس العامل البشري دوراً مهماً لمعرفة الشخصية الحقيقية للمكان.

تهتم الجغرافية بالمكان بحكم كونه أساس الظاهرة الجغرافية، إذْ إنَّ البعد المكاني يُدرَس من حيث *الشكل الخارجي* External shape الذي يمكن تصنيفه إلى نوعين: النوع الأول *الخصائص المكانية* Spatial Characteristics ويُقصَد بها الخصائص الجغرافية في الحيز المكاني، إذْ يرى *شولي* " أنَّ هدف الجغرافية هو معرفة الظاهرة من حيث خصائصها "[1] وهنا إشارة إلى الخصائص المكانية، إذ يعتمد تحديد نوع المهمة التي يقوم بها المكان على الخصائص المكانية فهي التي تسهم في نموه وتغيير وظائفه، وتلك الخصائص تنقسم على قسمين: القسم الأول الخصائص الطبيعية، وتشمل السطح، والمناخ، والتربة، والمياه، والنبات، فمثلاً أنَّ اختيار عواصم الدولة العباسية يستند إلى الخصائص الموضعية الطبيعية، فقد اشتركت العواصم ببعض الخصائص منها: نقاء هوائها، ووفرة مياهها، وانبساط أرضها، والقسم الثاني الخصائص الموضعية البشرية، وتشمل عادات السكان، وتقاليدهم، واستقرارهم، ومهنهم وغيرها، والنوع الثاني *التغيرات المكانية* Spatial Changes التي يُقصَد بها التغيرات التي تحدث في الخصائص المكانية كما في الشكل (1)، إذْ يرى **شلوتر** أنَّ التغيرات في الحيز المكاني تسبب تحركات السكان من مكان إلى آخر، فمثلاً أنَّ العلاقة بين استقرار السكان والعاصمة علاقة قوية؛ فحيثما تحركت العاصمة تحرك السكان معها ويمكن وصفها بأنَّها علاقة طردية[2].

ويُدرَس المكان من حيث *المضمون الداخلي* Internal content الذي يمكن تصنيفه على نوعين: النوع الأول *الفعل الموقعي* Situational Action الذي ينقسم بدوره على قسمين: القسم الأول *الموقع المركزي* Central situation ويُقصَد به المكان الذي مارس دوراً مهماً في التاريخ حتى أصبح يمثل مركز استقطاب لأماكن أخرى مجاورة له حتى البعيدة عنه، مثل الشمعة تضيء ما حولها لتجذب الأنظار كافة لها، فتزدهر من جراء ذلك في المجالات السياسية

والاقتصادية كافة، ومثال على ذلك مدينة بغداد، وسامراء، والقاهرة، أما القسم الثاني *الموقع الهامشي* Non – central situation: ويُقصَد به المكان الذي مارس دوراً مهماً في التاريخ ضمن مرحلة تاريخية وسرعان ما يصيبه التدهور وقد يختفي الموقع ويندثر على مستوى المجالات كافة السياسية والعسكرية والاقتصادية، ممّا لاشك فيه أنَّ الخصائص الجغرافية لها الدور المؤثر في ذلك التدهور؛ إذْ إنَّ هنالك كثيراً من الأماكن لم يعد لها وجود، والملاحظ أنَّه عندما يمر مكان ما بهذا الفعل فلا بد أنْ يؤدي مكان آخر دوراً مهماً أي يتجه الفعل إلى المكان الآخر بغض النظر عن طبيعة المسافة بينهما فمثلاً عندما تعرضت مدينة بغداد إلى الدمار على يد هولاكو (656 هـ) ظهرت القاهرة على نهر النيل لتجذب لها عاصمة الدولة العباسية.

أما النوع الثاني *الحراك الموضعي* local mobility الذي ينقسم بدوره على قسمين: القسم الأول *الموضع الوريث* The hereditary position هو أحد المفاهيم التي تعبر عن عملية الحراك للمواضع من موضع إلى آخر داخل الحيز المكاني أو خارج حدوده إذْ إنَّ كثيراً من المواقع لا تستطيع أنْ تلبي مطالب العصر في مرحلة ما إلّا أنَّها لم تُهجَر بل تتشكل على وفق إمكانيات مواضعها أي إنَّها في عملية حركة مستمرة بين مواضعها، وخير مثال على ذلك حراك موضع عاصمة الدولة العباسية من هاشمية الكوفة إلى هاشمية الأنبار وأيضاً من سامراء إلى المتوكلية ضمن مساحة محدودة من الأرض ذات امتداد رأسي، من أجل المحافظة على بقاء العاصمة بحكم التحديات التي تواجهها، أما القسم الثاني *الموضع البديل* Alternative position ويُقصَد بعملية الحراك للمواضع (تعاقب المواضع) داخل إطار الموقع وبسبب حيوية الخاصية الموضعية ضمن الموقع، على سبيل المثال اختيار الكوفة العاصمة الإسلامية في زمن الإمام علي بن طالب (عليه السلام) ومن ثَمَّ العودة للكوفة في الأيام الأولى لتأسيس الدولة العباسية إذن هذا النوع من الحراك يقع ضمن حيز موقعي محدد ومع التعاقب التاريخي.

تمثل العاصمة الموقع الذي تُمارس فيه الدولة إحدى سلطاتها أو جميع سلطاتها: (التشريعية، والتنفيذية، والقضائية)[3]، فالعاصمة تُعرف بأنَّها المكان الذي تتركز فيه السلطة السياسية لإدارة الدولة، فقد مّيز (كاميل فاللو وجان برون) بين نوعين من العواصم بناء على تكوينها: النوع الأول *العاصمة الطبيعية* Natural capital وهي التي نمت بشكل طبيعي مع مرور الزمن وحافظت على بقائها، لما تمتلكه من مقومات موضعية وموقعية ساعدتها على الاستمرار مثل مدينة بغداد، والنوع الثاني *العاصمة المصطنعة* Artificial capital وهي التي بُنِيَتْ بالأمر ولم تحافظ على وجودها بوصفها عاصمة[4]، إذن بُنِيَتْ لغرَض تنظيم علاقاتها مع المناطق المجاورة، وتنظيم العلاقات بين سكانها من أجلَ التعايش السلمي، وفض النزاعات، وإحلال الأمن في العاصمة ضمن مرحلة تاريخية ما مثل مدينة سامراء.

الشكل (1)

الشخصية المكانية

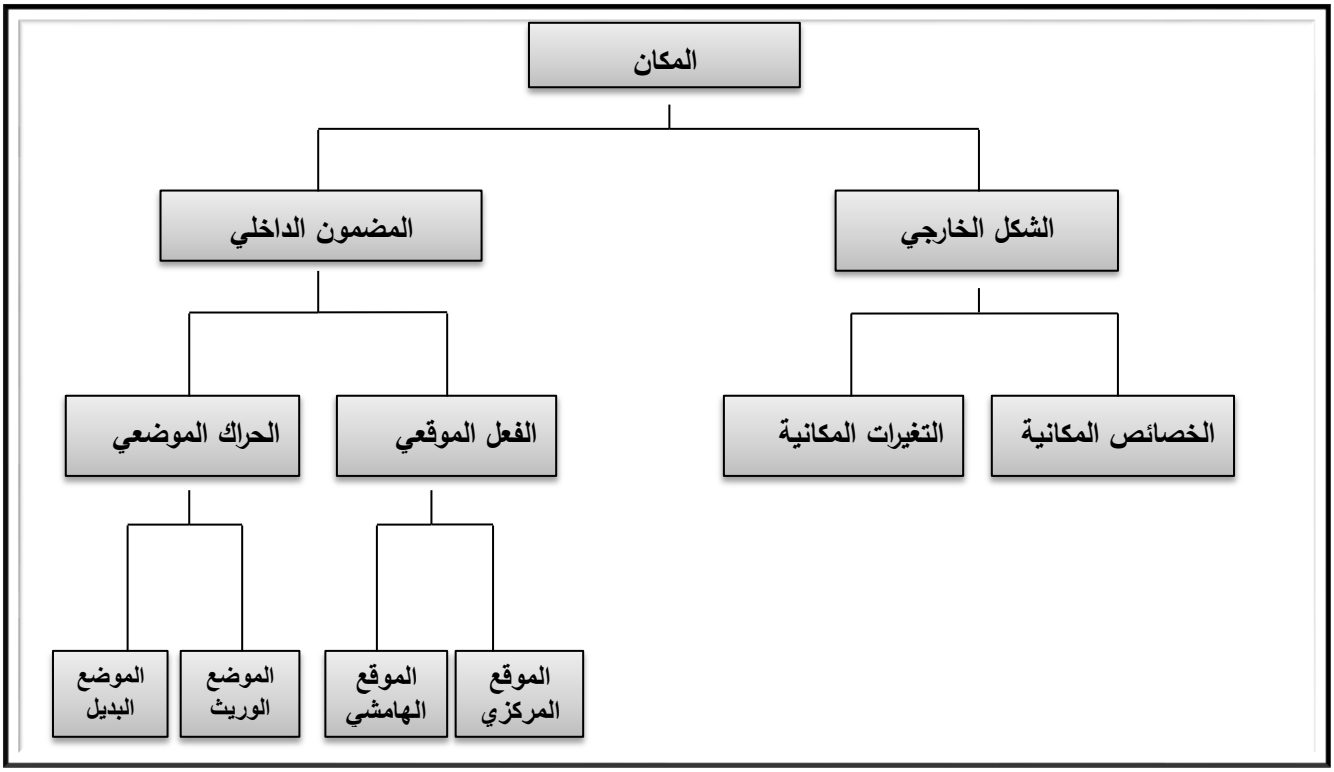

المصدر من عمل الباحث

أما من حيث اختيار موضع العاصمة فيقوم على ركائز عدة منها ما يدعم صفتها، ودورها السياسي: الركيزة الأولى *الموقع الجغرافي*، أنْ يتركز موضع العاصمة في منتصف مساحة الدولة؛ من أجل أنْ تكون الأماكن متقاربة بالمسافة نفسها عن العاصمة، والركيزة الثانية *البُعْد الاقتصادي*، أنْ يكون موضع عاصمة ذا إنتاجية اقتصادية عالية، فاستقرار الوضع السياسي للدولة يجعلها تتجه نحو تنشيط اقتصادها، ويصبح موضع العاصمة حلقة وصل لمواضع أخرى منتشرة حول العاصمة ضمن محيطها الداخلي والإقليمي ممّا يُعزز إحكام قبضتها على أطرافها، ومن ثَمَّ يفُعّل دورها السياسي، والركيزة الثالثة *البُعْد العسكري*، كان اختيار الموضع المناسب يعتمد بشكل رئيس هذه الركيزة إذْ يتميز موضعها بالتحصين العسكري؛ من أجل حمايتها مع توافر إمكانية الوصول اليها[5]، فالعاصمة أشبه بالكرسي ثلاثي الركائز يستند إليه مقعده السياسي وهذا يجعل الحراك السياسي للعاصمة أكثر فاعلية في توجهها، فمثلاً أنَّ حراك العاصمة بين هاشمية الكوفة جنوباً إلى المتوكلية شمالاً يُوصَفُ بالحراك الطولي من أجل المحافظة على التمركز الوسطي لعاصمة الدولة ذات الامتداد الجغرافي الواسع، كما في الخارطة (1).

إذن تؤدي العاصمة وظيفتها السياسية والإدارية، وهما من أهم الوظائف التي تؤديها بجنب وظائف أخرى كالوظيفة العسكرية التي نستشف ملامحها من انتشار الحصون، والقلاع، والاسوار، والخنادق ضمن تخطيط المدينة، أما الوظيفة الاقتصادية فتمارس العاصمة هذه الوظيفة

من خلال ملاحظة اهتمامها بالأراضي الزراعية، والصناعات المختلفة وأنَّها مركز استقطاب الرحلات التجارية من مختلف المناطق المتباينة في توزيعها المكاني عن العاصمة.

نستخلص ممّا تقدم أنْ موقع العاصمة ينطلق من وظيفتين: الأولى *الوظيفة الداخلية* وهي تركّز على قضيتين فاعلتين ومؤثرتين في وظيفة العاصمة الداخلية هما: القضية الأولى *التوجه السياسي الداخلي* الذي يرسم نوع السياسة التي تنتهجها في سلوكها السياسي الخارجي، وانعكاسه على حركة الحدود السياسية الفعلية في الحرب؛ أما القضية الثانية *الموارد البشرية* ويُقصَد بها ما تمتلكه الدولة من موارد سكانية واقتصادية. أما الثانية *الوظيفة الخارجية* فيُقصَد بها علاقة العاصمة بالعواصم الأخرى وهي أمّا أنْ تكون علاقة قوية أو ضعيفة.

خارطة (1)

حراك عاصمة الدولة العباسية

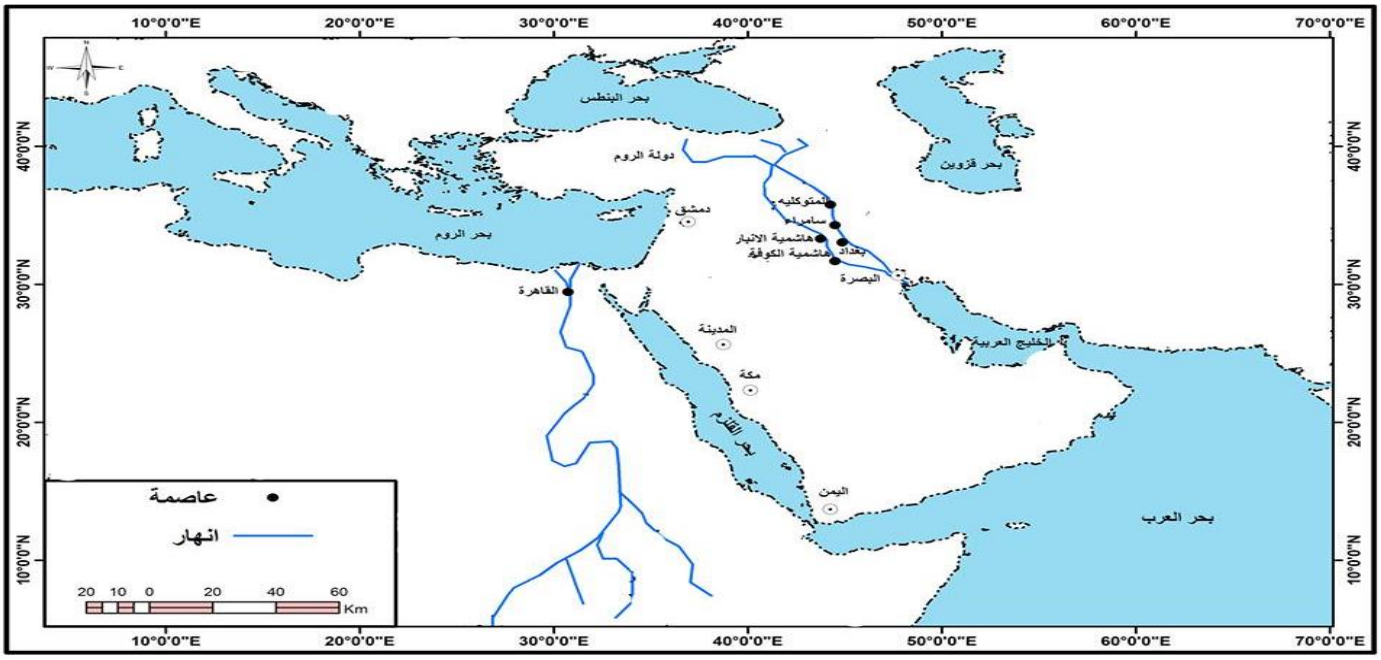

المصدر من عمل الباحث اعتمادا على: يونس الشيخ ابراهيم السامرائي، تاريخ مدينة سامراء، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مطبعة مجلة صوت الاسلام، بغداد، بلا سنة، ص48.

ثانياً: الحراك الموضعي للعاصمة

يهتم الموقع بعلاقة الحيز المكاني بالمناطق المحيطة به القريبة منه والبعيدة عنه والمرتبطة به سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، في حين يهتم الموضع بالصفات الطبيعية للحيز المكاني التي تتمثل بالمناخ والسطح والجيولوجيا، وكذلك بصفاتها الاقتصادية والاجتماعية[6]، إذن يرتبط الموقع مع الموضع بعلاقة وثيقة وعلى ضوئها يتم اختيار العاصمة فتتطور وتستمر مدة من الزمن، فكلما توثقت العلاقة الثنائية بينها زادت فاعلية الحيز المكاني، وأصبح المكان الأمثل للعاصمة، في حين يُمثل الموضع نقطة تُحددَّ ضمن الموقع الذي يُمثل رئة الجغرافية، والأساس الذي تقوم عليه عواصم الدول؛ لذا تؤثر خصائصه في تحديد الشخصية الموضعية؛ وانعكاس ذلك على مدى

نموها وازدهارها، إذ نلاحظ في أثناء حراك عاصمة الدولة العباسية من موضع إلى آخر تُحافظ على إطلالتها على الأنهار (دجلة والفرات وفروعهما أو النيل).

نستخلص ممّا تقدم، أنَّ الحراك الموضعي للعاصمة بين المواضع النشطة منح الحيوية للمواقع الاستراتيجية لتمارس فعلها الذي تمثل بتمدد الدولة العباسية، واستمرارها حقبة تاريخية طويلة، فالتفاعل المكاني بين الموضع والموقع يُؤدي دوراً مهماً في ديمومة العواصم على عكس عواصم أخرى لم تمتلك التفاعل المكاني ممّا أدى إلى اندثارها مثل مدينة تُدمر عاصمة مملكة تدمر والحضر عاصمة مملكة الحضر والبتراء عاصمة مملكة الأنباط وغيرها.

بعد أنْ تمكن العباسيين من السيطرة على الكوفة أصبحت عاصمة الدولة العباسية ولمدة عقدين من الزمن على الرغم من أنَّ الخلفية أبا العباس السفاح سكن في الهاشمية** وهي ناحية تتبع الكوفة وبعد ذلك بنى عاصمة له قرب الأنبار أُطِلْقَ عليها أيضاً الهاشمية، وسكنها من بعده اخوه الخليفة المنصور، ويرجع سبب بنائها إلى أنَّ الكوفة كانت مركزاً للثورات المستمرة ضد العباسيين لاسيما الراوندية؛ بسبب تفردهم بالحكم، ومنذُ نقل العاصمة إلى هاشمية الأنبار ومن ثم تأسيس بغداد على يد أبي جعفر المنصور سنة 145هـ بدأ موضع الكوفة يفقد أهميته بوصفها عاصمة، ولكنه بقي مركزاً عسكرياً وثقافياً لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد تعرضت لهجمات القرامطة سنة 312هـ، ممّا أدى إلى تراجعها، وفي سنة 334هـ، استعادت الكوفة بعض مكانتها على يد البويهيين فاعتنوا بها، ولكن سرعان ما فقدت الكوفة أهميتها السياسية، وعندما زارها الرحَّالة ابن جبير الأندلسي 580هـ شاهد علامات سقوطها فقال " ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة، ولما زارها الرحّالة ابن بطوطة 726هـ كان الجزء الكبير منها مهجوراً بسبب الهجمات المستمرة لقبيلة خفاجة عليها[7].

وهنا لابد من إيضاح سبب اختيار العباسيين للكوفة عاصمة لدولتهم، إنَّ موضع الكوفة كان معروفاً، ومُوطِناً للقبائل منذ تأسيسها سنة 17 هـ، ويقع موضع الكوفة على جزء من الضفة اليمنى لنهر الفرات المعروفة باسم (نهر العلقمي سابقاً) شرق مدينة النجف على بُعد 16 كم تقريباً، إذ تميز بارتفاعه بنحو 22 م عن مستوى سطح البحر ممّا حماها من الفيضانات، ووفّر أيضاً الحماية العسكرية من الهجوم من جهة الشرق، وتشير المصادر التاريخية إلى تميز موضع الكوفة بوقوعه على ارض سهلية وافرة المياه التي تُجلَب بواسطة القنوات، والجداول من نهر الفرات مع توافر التربة الخصبة اصبحت صالحة للزراعة ممّا منحها الثقل الاقتصادي، في حين يذكر المقدسي " النهر على طرفها من قبل بغداد، ولهم آبار، وحولها نخيل" [8] في إشارة إلى اعتماد الكوفة على مياه الآبار، وتميزت الكوفة بأهميتها السياسية للدولة العباسية؛ فهي عاصمة المسلمين الثانية ومعسكراً متقدماً باتجاه الشرق، ومركزاً ثقافياً أسهم في تطور العلوم والادب والفنون وغيرها[9].

جدول (1)

الحراك الموضعي لعاصمة الدولة العباسية

ت	مقر العاصمة	مدة الحكم بالتاريخ الهجري	مدة الحكم بالتاريخ الميلادي
1	هاشمية الكوفة	132هـ / 136هـ	749م / 753م
2	هاشمية الأنبار	136 هـ / 149 هـ	753م/ 766م
3	بغداد	149هـ / 221هـ	766م / 836م
4	سامراء	221هـ / 247هـ	836م / 861م
5	المتوكلية	247 هـ	861م (استمرت 9أشهر و3 أيام)
6	سامراء	247 هـ /279هـ	861م /892م
7	بغداد	279هـ / 656هـ	892م / 1258م
8	القاهرة	656هـ / 923هـ	1261م / 1517م

من عمل الباحث

بعد وصول العباسيين إلى الحكم كان من الضروري أنْ تكون هناك عاصمة تليق بالدولة العباسية بحكم أهمية العاصمة، ومكانتها السياسية والإدارية، بعد أنَّ تعذر على الخليفة أبي العباس تحقيق مشروع بناء العاصمة، أدرك الخليفة المنصور أهمية بناء العاصمة، فبعث بالرواد ليكشفوا المواضع، ولكنه رفضها، وبدأ يبحث بنفسه عن موضعٍ مناسبٍ لتأسيس مدينته الجديدة، ليستقر بها هو وجنده، فسار إلى موضع بغداد الحالي ومن ثَمَّ موضع الموصل الحالي وعاد إلى بغداد*** لأنّه استطاب هواءَها، وقال " هذا الموضع أرضاه... ويصلح أنْ تُبنَى فيه مدينة "[10]، وزيادة في الدقة سأل وجهاء المدينة عن حرها، وبردها، وأمطارها، وبقها، وهوامها، ووجَّه رجالاً للمبيت في قراها والمجيء بخبرها، وكذلك أخذ مشورة صاحب بغداد، فقال " إنّنا نكون بين نخل، وقرب ماء، وأنت بين أنهار لا يصلك عدوك إلا على جسر أو قنطرة...وأنت متوسط...السواد كله، وأنت قريب من البر، والبحر، والجبل... والتدبير في المدن أنْ تُتَّخذ لها الأسوار، والخنادق، والحصون " [11]، وقد استغرق بناؤُها أربعة أعوام من 145هـ – 149هـ ؛ فقد شُيِّدت المدينة على وفق شكلٍ دائري ذي هندسة معمارية معروفة سابقاً، فقد بُنِيَ لها سوران فضلاً عن خندق يحيط بالسور الخارجي، وجُعِلَ لها أربعة أبواب، وأما تصميمها الداخلي فقد قُسِّمَت على سكك عدة ثم تليها دواوين الحكومة، ومن ثَمَّ قصور أولاد المنصور يحيطون بقصر الذهب[12]، ولما رغب الخليفة في معرفة شكل المدينة قبل بنائها، وبعد رسمها، أمر بأنْ تُخطَّط طرق المدينة بالرماد، وأمر أنْ يُوضَع على الخطوط حب القطن، وتُوقَد فيه النار، فنظر إليها والنار مشتعلة، فشاهد شكل المدينة الداخلي، فأمر بالبناء[13].

وتشير المصادر التاريخية إلى أنَّ اختيار هذا الشكل الدائري؛ من أجل سهولة الدفاع عن جميع اتجاهات المدينة الأربعة في الوقت نفسه في حالة الحرب المفاجئة، أو لرغبة المنصور في

أنْ يكون على مسافة واحدة من سكانها وجنده مع اختلاف توزيعهم، أو لأنَّ الشكل الدائري يمثل رمزاً للخليفة الذي يحكم المسلمين، وتدور حوله أمور دينهم ودنياهم[14] وربما لتأثر المنصور بالعواصم الفارسية ومنها همذان التي اتخذت الشكل الدائري[15]، ويرجّح الباحث أنَّ اختيار هذا الشكل الدائري من أجل أنْ تكون العاصمة رمزاً للخليفة حاكم أمور المسلمين، إذن تم الربط بين العاصمة والخليفة كأنهما وجهان لعملة واحدة ذات قيمة ثمينة.

أما عن سبب بنائها فيذكر ابن الأثير " أنَّه عندما ثارت الراوندية الواقعة بنواحي الكوفة كره المنصور سكانها " [16]، لرغبة الخليفة بتشييد مدينة تُخلد اسمه على مدى التاريخ، أما عن سبب اختيارها فقال المنصور " هذا الموضع أرضاه تأتية الميرة من دجلة والفرات ومن هذه الصراة "، وقال أيضاً "وهذا موضع معسكر ...، وهذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء، ويأتينا منها ما في البحر، ويأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء منه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك " وقال أيضاً " ما رأيت موضع أصلح لبناء المدينة من هذا الموضع بين دجلة، والفرات، وشريعة البصرة، والابلة، وفارس وما والاها، والموصل، والجزيرة، والشام، ومصر، ومدرجة الجبل، وخراسان" [17]، فقد ذكر اليعقوبي عزم المنصور على بناء بغداد، فقال " والله لأبنينها ثم أسكنها أيام حياتي ويسكنها ولدي من بعدي، ولتكون أعمر مدينة في الأرض" [18]، فأحضر المهندسين، والبنائين، والصناع، والنجارين، والحدادين، والحفارين من الشام، والموصل، والبصرة، والكوفة، وواسط وغيرها حتى وصل عددهم إلى مائة ألف عامل[19]، فأصبحت من أهم العواصم، وأجملها وعاصمة العلم والادب وموطن العلماء والفقهاء ومستقر الخلفاء.

نستنتج من ذلك اكتساب موضع بغداد لخصائص جغرافية عدة تمثلت بتوسط موقعها الدولة العباسية، فأصبحت عقدة الطرق التجارية، وذات أرض خصبة؛ لوقوعها بين نهرين، فامتلكت المزارع، والبساتين، والموقع الحصين؛ لوجود الأنهار لاسيما نهر دجلة الذي يفصل المدينة عن الشرق ومن ثَمَّ بناء الأسوار والحصون أهّلتها لأنْ تكون عاصمة الدولة؛ من أجل حمايتها من الهجمات الخارجية، أما سياسياً فقد تمثلت باستراتيجية موقع بغداد، وحيويته لتحقيق طموح الدولة العباسية للتوسع شرقاً وغرباً وشمالاً، فضلاً عن مساهمة الأنهار في حركة النقل النهري بجنب حركة النقل البرية داخل المدينة ومع خارجها؛ فقد استفادت بغداد بشكل واضح من توافر شبكة النقل النهرية، والبرية التي ساعدت على التطور العمراني، والاقتصادي، والاجتماعي، فقد ربطت بغداد بين المنطقة السهلية والمنطقة الجبيلة في الداخل من جهة، وربطت بين بلاد فارس والهند شرقاً التي كانت تُصدر منتجاتها إلى بغداد براً وبحراً عبر مدينة البصرة مع بلاد الاندلس غرباً، فقد أدّى توافر الأنهار دوراً مهماً في تشييد المدينة، فحاجة السكان للمياه لأغراض البناء، والشرب، والري، والنقل ومنها: نهر دجلة ونهر عيسى****، الواقع غرب المدينة والمتفرع من الجانب الأيسر لنهر الفرات في جنوب الفلوجة وينتهي بنهر دجلة عند منطقة خشم (الدورة

حالياً)، ويتفرع عن هذا النهر من شماله نهر الصراة العظمى، ويسير نحو الشرق، وينتهي عند نهر دجلة، ومن النهر الأخير يتفرع أيضاً نهر الصراة الصغرى، وكلاهما كانا يسقيان البساتين الواقعة على الجانب الأيسر للمدينة. وتشير المصادر التاريخية إلى تشييد سد على فرعي نهر الصراة أطلق عليه اصطلاح قديم (شاذروان) لرفع مستوى المياه ممّا تسبب في منع وصول السفن، والبضائع؛ لذا تم نقل البضائع من السفن إلى سفن أخرى لتواصل رحلتها إلى بغداد مركز التجارة في عصر الدولة العباسية، ويعد اليعقوبي عامل المياه احد العوامل المهمة والحيوية الذي يتم على ضوئه تحديد موضع العاصمة، واختيار اتجاه توسعها[20].

إنِّ هذه الأهمية خالطها ضعف موضعي تصميمي جيوبولتيكي؛ فافتقاد العاصمة إلى المناطق الخضراء التي تُساعد على تلطيف الجو أفقدها المتنفس الطبيعي فقد تم استغلال مساحة المدينة بالبناء، وهذا فسّر سبب رحلات التنزه والصيد الكثيرة التي مارسها الخلفاء ممّا يُشكل خطراً على عاصمة محاطة بالتحديات لاسيما من جهتي الشرق والشمال، إنَّ تصميم المدينة المُسوّرة لم يراعِ النمو السكاني المتزايد، والهجرة إلى المدينة ممّا سبب في اختناق سكاني.

عندما تولى المعتصم الخلافة بدأ يبحث عن موضع لإنشاء عاصمته الجديدة، فوقع اختياره على القاطول على بعد عشرة كيلومترات جنوبي سامراء إذ أشارت المصادر التاريخية إلى اختيارها من هارون الرشيد للتنزه، أمّا الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد فقام بتخطيط المدينة على جانبي القاطول، فبنى قصر الدولة، والأسواق، ومعسكر الجند بعيداً عن السوق، والسكن وأحاطه بالسور، ولكن المعتصم قرر التوقف عن بنائها، والبحث عن موضع أخر؛ بسبب عدم قدرتها على استيعاب التوسع؛ لإحاطتها بالأنهار، ثم ذهب إلى الشماسية لكنه لم يخترها؛ لضيق مساحتها، ولقربها من بغداد، وهو يرغب في الابتعاد، حفاظاً على جنده، ومن ثَمَّ ذهب إلى البردان ولكن لم يستطب هواءَها، مع ضيق مساحتها، وذهب إلى باحمشا في الجانب الشرقي من نهر دجلة ولكنها كانت أرضاً مرتفعة يصعب حفر نهر فيها، ثمَّ ذهب إلى المطيرة جنوب سامراء ولكنها لم تَرُقْ له[21] حتى وصل إلى موضع فيه دير للمسيحيين، فسأل الرهبان عن اسمها " فقالوا سُرَّ مَنّ رأى*****... واستطردوا قائلين سيعمرها ملك جليل، فقال المعتصم: أنا والله أبنيها، وأنزلها، وينزلها ولدي"[22]، فأقام فيها ثلاثة أيام، فاستحسن هواءَهُا، وفي سنة 221 هـ قام بتخطيطها، فتم اختيار موضعها على الجهة الشرقية لنهر دجلة فوق أرض هضبية، تميز موقعها بتوسطه الدولة ممّا منحها القدرة على مواصلة السيطرة والهيمنة على أطراف الدولة، وأتاح الموقع سهولة الاتصال بين سامراء والبصرة بواسطة النقل النهري ضمن علاقاتها الداخلية، فضلاً عن علاقاتها الخارجية التي تربط أطراف الدولة مع بعضها بواسطة النقل البحري بالبصرة ثُمَّ سامراء أو النقل البري ممّا ساعد على تزايد علاقاتها المكانية كماً ونوعاً، بذلك يكون موضع سامراء وموقعها امتدادين لمدينة بغداد من حيث الأهمية الاستراتيجية، إذْ يتمتع موضعها بمميزات دفاعية تمثلت بإحاطتها بالمياه من جميع الاتجاهات، فنهر دجلة من الغرب، ونهروان (القاطول

(الرصاصي)) من الجهة الشمالية والشرقية، ونهر القائم (القاطول) من جنوبها[23]، لكن اختيار موضع سامراء تمّت مراعاة تصحيح بعض الأخطاء التي وقعت عند اختيار موضع بغداد وتجسد ذلك بما يأتي:

1- يقع جزء كبير من المدينة فوق أرض هضبية مرتفعة عن نهر دجلة بأمتار قليلة[24] ممّا جعلها في مأمن من الفيضانات التي عانت منها بغداد ولسنوات عديدة ممّا أضعف المدينة في وقت التحديات السياسية التي كانت تفوق قدرتها على المقاومة.

2- عانت بغداد من الجنود الأتراك******* الذين كانوا يعاملون سكانها معاملة سيئة فقد كانوا يصدمونهم بخيولهم، فضلاً عن تحرشهم بالنساء[25]، ويذكر ياقوت الحموي وابن الطقطقي اجتمع الناس وقالوا للخليفة " ... ما شيء أحب إلينا من مجاورتك ... فقد أفرط علينا أمر غلمانك، وعمّنا أذاهم فأما منعتهم أو تنقلهم عنا "[26] لذا جاء اختيار سامراء ليقضي على الفتنة بين سكان بغداد وجنده من خلال نقل الجند خارج بغداد من جهة، وإسكانهم في مناطق بعيدة عن سكان مدينة سامراء من جهة أخرى.

3- تمَّت مراعاة مسألة مهمة في تخطيط مدينة سامراء هي توسّع المدينة العرضي بمسافة (2 – 15كم) والطولي بمسافة أكثر من (60كم)، فقد عانت مدينة بغداد من ضيق المساحة مع النمو السكاني، والهجرة السكانية لها.

فقد تزايد الاستيطان السكاني في مدينة سامراء؛ كونها عاصمة الدولة من جهة، وصلاحية أرضها للزراعة؛ لتوافر التربة السهلية الخصبة مع وفرة الموارد المائية، والمشاريع الاروائية كمشروع القاطول الأعلى (الرصاصي)؛ ومشروع الإسحاقي الذي أُعِيْدَ إحياؤُهُ[27] لذا ساعدت تلك الأوضاع على قيام زراعة لا سيما على ضفتي نهر دجلة ممّا شجع سكانها على الاستقرار بالقرب من ضفاف الأنهار، وظلت مقراً للخلافة العباسية مدة تقرب من ٥٨ سنة، وأدى نشوئها إلى قيام مركز منافسٍ علمياً وعمرانياً لبغداد ممّا شجّع على التقدم الحضاري للدولة، ولكن بسبب تعاظم قوة الجند الأتراك، وتوسع نفوذهم، زاد تدخلهم في شؤون الدولة ممّا ادى إلى اشتداد الصرع بينهم وبين الخلفاء، وعندما تولى المتوكل على الله الخلافة اهتمَّ بتوسيع سامراء وتحسينها لكنها ضاقت بأحلامه، ولم تحقق استقراره السياسي؛ لذا سعى لنقل العاصمة من سامراء إلى دمشق، من أجل التخلص من نفوذ القادة الترك، والابتعاد عن الفرس من جهة، وإشراك العرب بالحكم من جهة أخرى، فلمّا ذهب إلى دمشق استقر في موضع بين داريا ودمشق حيث قصر المأمون لكنه سرعان ما تركها ليرجع إلى سامراء بعد إقامة لمدة شهرين؛ لشعوره بأنَّ حكمه سينتهي في هذا الموقع؛ لأنه غير صالح له سياسياً[28]، فرغب في أنْ يُنشِئ له مدينة جديدة يتم تخطيطها على وفق رغبته، فبدأ البحث عن موضع تلك المدينة فوقع الاختيار على موضع يقع شمال سامراء يُقال له الماخورة وسُمِّيت المدينة باسم (الجعفرية) وكان الخليفة وصحبه يسمونها (المتوكلية)، وتم تقسيمها على ثلاثة أقسام الأول: القسم الجنوبي يُسمّى بعربايا لسكنى السكان،

والقسم الوسطي خُصِّصَ لقيادات الجند، وجندهم، والقسم الثالث منطقة معزولة عن المدينة خُصِّصَ لقصر الخليفة، ودار الخلافة، ودواوين الدولة، ويفصله عن بقية الأقسام سور يمتد بين ضفة القاطول الأعلى، ونهر دجلة، وله ثلاثة أبواب[29]، فالموضع الجديد يمتد مع نهر دجلة، ويوجد فيها نهر مندثر يسد حاجة المدينة من المياه بعد إعادة فتحه، فبدأ العمل على بناء المدينة سنة 245هـ وسُكِنَتْ سنة 247هـ، ولكن الخليفة قُتِلَ في السنة نفسها التي انتقل للسكن فيها فانتهت العاصمة سريعاً. وتُشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة المعتمد على الله تنقل بين بغداد وسامراء، وعندما تولى الخليفة المعتضد بالله سنة 279 هـ انتقل إلى بغداد فأصبحت أشبه بالقرية تُعَرف باسم (ساء مَن رأى) فتهدمت عمارتها، فانتهى دورها بوصفها عاصمة سياسية مارست دوراً مهماً في التاريخ[30].

ثالثاً: الفعل الموقعي للعاصمة

تُعد السنوات الممتدة من (132هـ – 232 هـ) عصراً ذهبياً كما في جدول (2)؛ إذْ تمتع الخلفاء بسلطتهم الدينية والدنيوية، فازدهرت العاصمة بغداد عمرانياً إذْ تم بناء المساجد، والقصور، والمحلات السكنية، والأسواق، ومؤسسات الدولة وغيرها، وتطورت اقتصادياً فقد أمست ملاذ التجار من مناطق عدة، وتحّسن المستوى المعيشي والفكري والثقافي والعلمي فقد وفدها طلبة العلم، ورجال الدين وغيرهم. إنَّ أهمية موقع العاصمة بغداد الاستراتيجي عُرِفَ سابقاً ففي عصر الأمويين كان الخلفاء الأمويين يضعون في هذا الموقع المتقدم الجيش؛ لينطلقوا لإخماد الثورات قبل تفاقمها، فقد كان لهشام بن عبد الملك وغيره من الخلفاء 500 فارس يرابطون في بغداد للقضاء على الثورات في حال اندلاعها[31] وهذا يدل على الإدراك للأهمية الموقعية لبغداد.

شهدت سنة 324 هـ ارتباكاً في الأوضاع الداخلية تمثلت بمسألتين: المسألة الأولى؛ سوء الأوضاع السياسية الداخلية نتيجة الأزمات المالية والاقتصادية ممّا حذا بالخلفاء العباسيين بيع الولايات على أساس الضمان إلى قادة الأتراك والفرس، فأصبحت مقاليد الأمور السياسية، والاقتصادية، والإدارية بيدهم مقابل حل الأزمة المالية لكن الأمور تفاقمت، فتهيأت الظروف أمام القوى الخارجية (مثل البويهيين) للسيطرة على الدولة العباسية ممّا أدى إلى حدوث الفوضى، والفتن الطائفية، وفقدان الأمن وتمّت سرقة الأموال، وحرق البيوت، والاسواق[32]، فقد قال المقدسي في بغداد " في كل يوم إلى ورا "[33]، على الرغم من الأعمال التي قام بها عضد الدولة لكنها لم ترتقِ لحجم الدمار الذي تسبّب به البويهيون، وفي سنة 447 هـ انتهى التسلط البويهي ليحل محله عصر جديد من عصور التسلط والتخريب والقتل وسرقة أموال الناس، وتخريب الأراضي الزراعية، والقرى المحيطة ببغداد، وهو سيطرة السلاجقة ******* التي استمرت للمدة بين (447 هـ – 590هـ)؛ وقد واجهوا خلالها متاعب عديدة لا سيما خلال المدة من (512هـ – 590هـ) تمثلت بعدم قدرتهم على إحكام سيطرتهم على الدولة العباسية؛ بالنظر لوجود حكام أقوياء قادوا أهالي

جدول (2)

الفعل الموقعي للعاصمة

ت	الخلفاء	مدة الحكم بالهجري	مدة الحكم بالميلادي	العاصمة	الفعل الموقعي	ت	الخلفاء	مدة الحكم بالهجري	مدة الحكم بالميلادي	العاصمة	الفعل الموقعي
1	عَبْد الله بن محمد بن علي	132- 136	750 - 754	هاشمية الكوفة	المركزي	32	يوسف المستنجد بالله	555 - 565	1160 - 1170		
2	عبد الله الثاني بن محمد بن علي	136 - 158	754 - 775	هاشمية الأنبار		33	حسن المستضيء بأمر الله	565 - 575	1170 - 1180		
3	أبو عبد الله محمد المهدي	158 - 169	775 - 786	بغداد		34	أحمد الناصر لدين الله	575 - 622	1180 -1225		
4	أبو محمد موسى الهادي	169 - 170	786 - 787			35	محمد الظاهر بأمر الله	622 - 623	1225 -1226		
5	هارون الرشيد	170 - 193	787 - 809			36	منصور المستنصر بالله	623 - 639	1226 - 1242		
6	أبو عبد الله محمد الأمين	193 - 198	809 - 814			37	عبد الله المستعصم بالله	639 - 656	1242 - 1258		
7	عبد الله المأمون	198 - 218	814 - 833			38	أحمد المستنصر بالله	656 - 660	1261 - 1262	القاهرة	المركزي
8	المعتصم بالله	218- 227	833 - 842	سامراء		39	الحاكم بأمر الله الأول	660 - 701	1262 - 1302		
9	هارون الواثق بالله	227 - 232	842 -847			40	سليمان المستكفي بالله	701 - 740	1302-1340		
10	أبو الفضل جعفر المتوكل على الله (استقر لمدة تسعة أشهر وثلاثة أيام المتوكلية)	232 - 247	847- 862	سامراء المتوكلية	الهامشي	41	إبراهيم الواثق بالله	740 - 741	1340 - 1341		
11	أبو جعفر محمد المنتصر بالله	247 - 248	862 -862			42	الحاكم بأمر الله الثاني	741 - 753	1341 - 1352		
12	أحمد المستعين بالله (ترك سامراء وستقر في بغداد لمدة سنة)	248 - 251	862 - 866			43	المعتضد بالله الثاني	753 - 763	1352 - 1362		
13	محمد المعتز بالله	251 - 255	866- 869			44	المتوكل على الله الأول	763 - 778	1362 - 1377		
14	أبو إسحاق محمد المهتدي بالله	255- 256	869-870			45	زكريا المستعصم بالله	778 - 778	1377 - 1377		
15	أبو العباس أحمد المعتمد على الله	256 - 279	870-892			46	المتوكل على الله الأول	778 - 784	1377 - 1383		
16	أحمد المعتضد بالله	279 - 289	892-902	العودة إلى بغداد		47	عمر الواثق بالله	784 - 787	1383 - 1386		
17	علي المكتفي بالله	289 - 295	902-908			48	زكريا المستعصم بالله	787 - 791	1386 - 1389		
18	جعفر المقتدر بالله	295 - 320	908-932			49	المتوكل على الله الأول	791 - 808	1389 - 1406		
19	محمد القاهر بالله	320 - 322	932-934			50	العباس المستعين بالله	808 - 816	1406 - 1414		
20	محمد الراضي بالله	322 - 328	934-940			51	داود المعتضد بالله	816 - 844	1414 - 1441		
21	إبراهيم المتقي لله	328 –332	940-944			52	المستكفي بالله الثالث	844 - 854	1441 - 1451		
22	عبد الله المستكفي بالله	332 - 334	944 - 946			53	حمزة القائم بأمر الله	854 - 859	1451 - 1455		
23	فضل المطيع لله	334 - 363	946-974			54	المستنجد بالله الثاني	859 - 883	1455 - 1479		
24	عبد الكريم الطائع لله	363 - 380	974-991			55	عبد العزيز المتوكل على الله	883 - 902	1479 - 1497		
25	أحمد القادر بالله	380 - 422	991- 1031			56	يعقوب المستمسك بالله	902 - 913	1497 - 1508		
26	عبد الله القائم بأمر الله	422 - 467	1031 - 1075			57	المتوكل على الله الثالث	913 - 921	1508 - 1516		
27	عبد الله المقتدي بأمر الله	467 - 487	1075 - 1094			58	يعقوب المستمسك بالله	921 - 922	1516 - 1517		
28	أحمد المستظهر بالله	487 - 511	1094 1118			59	المتوكل على الله الثالث	922 - 922	1517 - 1517		
29	الفضل المسترشد بالله	511 - 529	1118 -1135								
30	منصور الراشد بالله	529 - 530	1135 1136								
31	محمد المقتفي لأمر الله	530 - 555	1136 - 1160								

المصدر من عمل الباحث اعتمادا على: https://ar.wikipedia.org/wiki -

- يونس الشيخ ابراهيم السامرائي، تاريخ مدينة سامراء، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مطبعة مجلة صوت الاسلام، بغداد، بلا سنة، ص25.

بغداد في ثورة ضد السلاجقة، فقد قام الخلفاء بتقوية النظام الداخلي فقد ذكر ابن الجوزي سنة 514هـ " قام الخليفة بهدم بيوت الخمر ورفع الظلم عن السكان وإعادة بناء سور بغداد وحفر خندقاً وحصن أبواب السور وفتح باب التطوع للجيش ومنح الصدقات للفقراء والتقرب للعلماء والفقهاء وبناء المساجد ودور الضيافة والحجيج، وقد استمرت عملية تقوية النظام السياسي الداخلي حتى زمن الخليفة الناصر لدين الله[34] إذْ يذكر ابن الأثير أنَّ طغرل الثالث آخر سلاطين السلاجقة طلب من الخليفة إعادة إعمار دار السلطنة، فجاء الرد من الخليفة بهدمها، وإخفاء أثرها[35]، وقام الخليفة بالتحالف مع ملك بلاد عربستان ودقوقا وقلعة تكريت وقلعة حديثة، وهمذان والدولة الخوارزمية من أجل القضاء على دولة السلاجقة فتم ذلك، فانتهى آخر عصر من الاستبداد والتعسف والتخريب واستمرت عجلة التحسّن السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكنها لم تستطع تغيير المأساة القائمة بشكل جذري، ولكنها حافظت على ديمومة العاصمة لمدة طويلة من الزمن، ويقول في ذلك أبو جعفر يحيى بن محمد العلوي[36].

وليتَ وعامُ الناسِ أحمرُ ماحِلُ فَجِدْتَ وجادَ الغِيثُ وانقشعَ المَحْلُ

وكم لكَ من نعماءَ ليس بُمّدركٍ لها حاسِبٌ إذا حَسب الرَّملُ

أما المسألة الثانية، سوء الأحوال الطبيعية فتمثلت بانتشار الفيضانات، والسيول التي تفاقم خطرها مقارنة مع السنوات السابقة؛ بسبب ارتفاع مناسيب مياه نهر دجلة، ونهر القورج، فدُمّرَت الأراضي الزراعية، والأسواق، والمحال السكنية، ويذكر ياقوت الحموي "القورج نهر بين القاطول وبغداد، منه يكون غرق بغداد " كان بداية حفره من أجل تحسين الأحوال الزراعية، ويذكر ياقوت الحموي " أما اليوم فتحول إلى بلاء على أهل بغداد... وإذا زاد الماء فأفرط بثقة على المدينة"، مالم يُرمم كل سنة؛ لذا حدثت فيضانات خلال السنوات (329هـ و366هـ و370هـ و431هـ و454هـ و461هـ و466هـ و 469هـ و499هـ و515هـ و546هـ و554هـ و568هـ و569هـ و604هـ و614هـ 641هـ و646هـ و651هـ 654هـ و و950هـ)[37] فقد سببت الفيضانات تهديماً للمحلات السكنية، والمدارس، والمساجد، وتلف المزارع وهذا مؤشر على ضعف الدولة لاسيما خلال التسلط السلجوقي فلو كانت قوية ومستقرة لقامت بترميم السدود، وجوانب النهر سنوياً منعاً لحدوث الفيضانات، وأما الزلازل فقد وقعت في سنوات عدة (450 هـ و511هـ و524هـ و478 هـ و544هـ) الحقت الضرر بالمدينة، وانتشار المجاعات، والأوبئة بين السكان والحيوانات إذْ يقول ابن خلدون " وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء ... وإذا فسد الهواء ... وقع المرض"، فيذكر ابن الجوزي انتشار الأوبئة والأمراض خلال السنوات (478هـ و469هـ و531هـ) لا سيما مرض الطاعون (في سنة 478هـ)، ومرض الجرب (في سنة 531هـ)، وفي سنة (575هـ) وقع الجفاف، فانتشر الوباء، وارتفعت أسعار السلع[38]، لقد خلفت تلك الأحوال الطبيعية كوارث عدة ألقت بظلالها على واقع العاصمة المتردي بفعل التسلط الخارجي، وبهذا التفاعل بين الخصائص الطبيعية والبشرية نَشَأَ واقع مؤلم للعاصمة؛ فقد تراجعت بغداد عن تأدية دورها الحضاري

والفكري، وأصبح دورها محاولة العودة لممارسة مكانتها الاستراتيجية من خلال خطوات خجولة للنهوض بوضع العاصمة التي لم تكن إلّا إصلاحات ترميمية وقتية لم تفد أو تنهض بعاصمة الدولة التي امتدت أطرافها إلى حدود المحيط الأطلسي غرباً وحدود الصين شرقاً.

أما موقع سامراء فقُدِّرَ له أنْ يعمه الخراب بسرعة بعد هجرها؛ بسبب إهمال الخلفاء له بعد المتوكل على الله ممّا تسبب في شحة مياه الشرب لسكان الضفة الغربية من سامراء؛ بسبب ارتفاعها، وانشغال الدولة بالحروب كثورة الزنج وخروج الولايات الشرقية عن سلطة الدولة، ممّا أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من سكان سامراء إلى بغداد[39].

فقد حكم سامراء ثمانية من خلفاء الدولة العباسية، ولم يستمر حكمهم أكثر من (54) سنة، فقد بنوها وعمروها، ليبدؤوا بمغادرتها فتركوها خالية لتندثر سامراء سريعاً كسرعة بنائها وعمرانها، ويعود السبب في ذلك لعدم توافر المقومات الكافية لقيام العاصمة على الرغم من احتلالها الموقع الثالث بعد الكوفة وبغداد عصر الدولة العباسية، وقد رثاها ابن المعتز بقوله[40]:

قد أقفرتْ سُرَّى مَنْ رأى وما لشيء دوامُ

فالنقضُ يُحملُ منها كأنَّهُ آجامُ

ماتتْ كما ماتَ فَيلٌ تُسَلُّ منه العظامُ

بسقوط بغداد حاضرة******** الدولة العباسية التي ظلت تحكم معظم أنحاء العالم الإسلامي للمدة (132هـ/656هـ) على أيدي المغول بقيادة هولاكو، بعد أن قتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي، والسواد الأعظم من أهلها الذين قُدِّروا بنحو مليون قتيل، وأضرموا النيران في المدينة، وهدموا المساجد والقصور، وأتلفوا ما بها من كتب بإحراقها أو رميها في دجلة، أصبحت بغداد قاعدة للمغول، ولم يوقف زحفهم سوى انتصار المسلمين في معركة عين جالوت في سنة 658هـ ممّا حال دون تقدمهم إلى مصر، ومنذ أنْ أقيمت الدولة العباسية في القاهرة، شهدت تطوراً وازدهاراً ثقافياً، ودينياً، واقتصادياً؛ إذْ تم بناء المدارس والمكاتب والمساجد لتضحى مركزاً للإسلام والمسلمين، إذْ تمتع السلاطين المماليك بمكانة ممتازة بين ملوك العالم الإسلامي؛ بوصفهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها، وحظيت القاهرة بشهرة دينية علمية واسعة بعد أنْ صارت حاضرة الدولة العباسية الجديدة من جهة وإنشاء السواقي من أجل إيصال الماء للمناطق الزراعية المحيطة بالعاصمة[41]، وإنشاء مراكز تدريب الجيش وتطويره من جهة ثانية، ينظر شكل (2).

الشكل (2)

مركزية الفعل الموقعي وهامشيته

من عمل الباحث اعتماداً على جدول (2)

النتائج:

توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج من أهمها:

- إنَّ الحراك المكاني ضمن حدود الحيز المكاني أو خارجه بالشكل الذي يتفق مع معطياته المكانية كي يحافظ على بقائه واستمراره، إذ يمتلك كل حيز مكاني سمة خاصة؛ لذا فقيمة المكان تتغير تبعاً لوظائفه وخصائصه التي تتأثر بطبيعة المرحلة التاريخية التي تقع فيها، فيزدهر المكان في وقت ما ليمارس دوره بشكل فعال ومؤثر في محيطه المكاني الكبير، وقد يصاب المكان بالضعف في وقت ما حتى يمسي تأثيره لا يتعدى حدود حيزه المكاني الضيق .
- عندما يستقر الوضع السياسي للعاصمة تمارس دوراً موقعياً مهماً وفعالاً، فتنهض المواقع المنافسة التابعة لها وتكون تحت سيطرتها، وما أنْ تتدهور العاصمة حتى تفقد سيطرتها على تلك المواقع المنافسة التي تبدأ بدورها بفرض هيمنتها، ووجودها، وسحب البساط من الموقع الفعال.
- امتلكت عاصمة الدولة العباسية المواضع الحيوية التي أهلتها لأنْ تفرض قدرتها على البقاء مدة طويلة من الزمن، فلولا تلك المواضع المنتشرة والمتقاربة مع بعضها التي تمتلك القيمة الموضعية نفسها لما حافظت الدولة العباسية على ديمومتها لسبعة قرون من الزمن بين العراق ومصر.
- إنَّ حكم استحواذ موقع العواصم على صفة الموقع الفعال ساعدها على مواجهة التحديات الكبيرة التي مرت بها من خلال ممارسه فعله الموقعي المستمد من حيوية خصائصه الجغرافية، ويظهر ذلك واضحاً عندما تقلص حجم العمران في مدينة بغداد خلال مدة التسلط البويهي والسلجوقي مقارنة مع مرحلة تأسيسها، لكن بغداد ظلت

قائمة بمعالمها الحضارية لتستمر بوصفها مركَز إشعاعٍ فكري وثقافي يقصدها العلماء من مناطق عدة لتلقّي العلوم فيها.

- إنَّ الموقع الحيوي الذي يتميز بوفرة خصائصها الموضعية يفرض نفسه على المشهد السياسي بقوة مع قدرته على البقاء بالرغم من تعدد التحديات الخارجية، وتنوعها التي تحيطه أو إعادة بناء نفسه من جديد بعد أن تخف حجم التحديات المتمثلة بالمواقع المنافسة المحاذية لها.

الهـوامـش:

1) صفوح خير، الجغرافية موضوعها ومناهجها وأهدافها، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، 2000، ص55.
2) المصدر نفسه، ص45-55.

* العاصمة مؤنث العاصم، والعاصم هو المانع أذن هي مواقع منيعة تعصم من عدوان الأعداء وتقع عليها مهمة إسناد سائر المدن التي تنضوي تحت لوائها. للإيضاح: أعياد عبد الرضا عبد آل، وسالم عبدالله جاسم، البعد الجيوبولتيكي لنقل عاصمة الدولة العربية الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد (21)، العدد (87)، الجامعة المستنصرية، 2015، ص403.

3) أعياد عبد الرضا عبد آل، وسام عبدالله جاسم، البعد الجيوبولتيكي لنقل عاصمة الدولة العربية الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد (21)، العدد (87)، الجامعة المستنصرية، 2015، ص403.
4) جمال حمدان، جغرافية المدن، الطبعة الثانية منقحة، عالم الكتب، القاهرة، بلا سنة، ص87.
5) عبدالرزاق عباس حسين، الجغرافية السياسية: مع التركيز على المفاهيم الجيوبوليتيكية، مطبعة أسعد، بغداد، 1976، ص 85.
6) جمال حمدان، جغرافية المدن، مصدر سابق، ص427.

** الهاشمية: نزل الخليفة الأول في هاشمية الكوفة التي تم بنائها بالقرب من مدينة ابن هبيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات بينهما عرض طريق، وعندما لاحظ الخليفة استمرار أهل الكوفة يطلقون عليها تسمية قصر بن هبيرة، قام الخليفة ببناء المدينة الهاشمية الجديدة (هاشمية الكوفة) التي يُرجح أنْ يكون مقرها ما بين الكوفة والحيرة على الضفة اليمنى من نهر الفرات ويقابلها في الضفة الأخرة قصر بن هبيرة، للتفاصيل ينظر: احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب اليعقوبي، كتاب البلدان، دار الكتب العالمية، بيروت، 2002، ص237.

7) كاظم الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية (خاصة في العصر الأموي)، مجلة حولية الكوفة، العدد (4)، امانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به، 2014، ص72.
8) طاهر مظفر العميد، تأسيس مدينة الكوفة، مجلة المؤرخ العربي، العدد (6)، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1977، ص104-106.
9) بهجت كامل عبداللطيف، الكوفة في المصادر الجغرافية العربية، مجلة المورد، المجلد (28)، العدد (4)، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، 2000، ص27.

*** سمّاها المنصور بمدينة السلام – نسبة لوادي دجلة كان يقال له وادي السلام – وهو الاسم الرسمي للمدينة الذي ذُكِرَ في الوثائق، وعندما بناها المنصور خصص منطقة الرصافة لسكنى الجيش ممّا ساعد على ازدهارها، للتفاصيل: عماد البحراني، أبو جعفر المنصور " المؤسس الحقيقي للدولة العباسية " دورية كان التاريخية، العدد (5)، 2009، ص54 – 58، ص56.

10) مهدي عبد الحميد حسين السامرائي، الخليفة أبو جعفر المنصور ودوره في بناء بغداد، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد (14)، جامعة بابل، العراق، 2013، ص 282.
11) أبو عبدالله شمس الدين محمد الشافعي المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، 1983، ص119،
12) صلاح رشيد الصالحي، الجذور التاريخية لاسم بغداد من خلال المواقع الأثرية القديمة، مجلة التراث العلمي العربي، العدد الأول، كلية الزراعة، جامعة بغداد، 2014، ص75.
13) سوسن بهجت يونس، خطط بغداد، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد (20)، العدد (86)، الجامعة المستنصرية، العراق، 2014، ص513.
14) المصدر نفسه، ص512.
15) عماد البحراني، أبو جعفر المنصور " المؤسس الحقيقي للدولة العباسية " دورية كان التاريخية، العدد (5)، 2009، ص54 – 58، ص56.
16) المصدر نفسه، ص56.
17) مهدي عبد الحميد حسين السامرائي، الخليفة أبو جعفر المنصور ودوره في بناء بغداد، مصدر سابق، ص276.
18) احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب اليعقوبي، كتاب البلدان، دار الكتب العالمية، بيروت، 2002، ص238.
19) سوسن بهجت يونس، خطط بغداد، مصدر سابق، ص 512.

**** نهر عيسى: لا تزال آثار النهر والبرك باقية منها ما كان في المحمودية، وكان متنزهاً للبغداديين ومكاناً للصيد لكثرة القصب والبردي فيه، وأشار إلى النهر المؤرخ الروماني (اميانوس مارسيلينوس 363 م، للتفاصيل، ينظر: صلاح رشيد الصالحي، الجذور التاريخية لاسم بغداد من خلال المواقع الأثرية القديمة، مجلة التراث العلمي العربي، العدد الأول، كلية الزراعة، جامعة بغداد، 2014، ص57–86، ص75، ص 59.

20) صلاح رشيد الصالحي، الجذور التاريخية لاسم بغداد من خلال المواقع الأثرية القديمة، مصدر سابق، ص60 – 65.
21) أحمد عبدالباقي، سامراء عاصمة الدولة العربية الإسلامية في عهد العباسيين، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ص27.

***** سُرَّ مَنْ رأى أو سامراء، وسُمِّيَتْ بالعسكر، وعُرِفَتْ سابقاً بالطيرهان، أُسْتُوْطِنَت المدينة منذ أكثر من 5000 سنة قبل الميلاد، والبعض يَرى أنَّها قرية بناها سام بن نوح (ع)، وبعضهم الآخر يُشير إلى جماعة مسيحية تُدعَى الجرامقة لا عمارة فيها إلّا دير لهم، ورأي آخر أنّها بُنِيَتْ من ذي الأكتاف (سابور الثاني)، للتفاصيل ينظر: أحمد سوسة، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، الجزء الاول، مطبعة المعارف، بغداد، 1948، ص48–53.

22) جهاد بن القرغولي، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في سامراء خلال القرن الثالث الهجري، مطبعة دار البصري، بغداد، 1969، ص69.
23) حسين علوان إبراهيم، وسحاب خليفة السامرائي، العوامل الجغرافية واثرها في اختيار موضع وموقع مدينة سامراء العباسية وتخطيط استعمالات الارض فيها، مجلة سُرَّ من رأى، ، المجلد (4)، العدد (10)، السنة الرابعة، جامعة سامراء، 2008، ص 1–15، ص2.
24) المصدر نفسه، ص2.

****** الجند الأتراك: جند جلبهم المعتصم؛ لشدتهم، ولعدم ثقته بجند بغداد، والفرس المتعصبين للعباس ابن أخيه المأمون، فضلاً عن أصوله التركية فأمه "ماردة" تركية الآصل، للتفاصيل ينظر: محمد أحمد هربود العيساوي،

تراث العرب الخططي والمعماري في العصر الإسلامي مدينة سامراء أنموذجاً / دراسة في التراث الفكري والعلمي العربي الإسلامي، مجلة سُرَّ مَن رأى، المجلد (9)، العدد (34)، السنة التاسعة، العراق، 2013، ص100.

25) احمد سوسة، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، الجزء الأول، مطبعة المعارف، بغداد، 1948، ص48-53، ص53.

26) شهاب الدين أبو عبدالله بن ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزاء (3)، دار صادر، بيروت، بلا سنة، ص 173 – 175.

27) خطاب صكار العاني، جغرافية العراق أرضاً وسكاناً وموارد اقتصادية، بغداد، 1990، ص46.

28) مهدي عبدالحميد حسين، الخليفة المتوكل على الله ومحاولة نقل الخلافة العباسية من سامراء إلى دمشق، مجلة سُرَّ مَنْ رأى، المجلد (8)، العدد (30)، السنة الثامنة، العراق، 2013، ص100 – 103.

29) شهاب الدين ابو عبدالله بن ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء (4)، دار صادر، بيروت، بلا سنة، ص266.

30) احمد عبدالباقي، سامراء عاصمة الدولة العربية الإسلامية في عهد العباسيين، مصدر سابق، ص26.

31) صلاح رشيد الصالحي، الجذور التاريخية لاسم بغداد من خلال المواقع الأثرية القديمة، مصدر سابق، ص 63.

32) علي فرحان زوير، تدهور أوضاع بغداد العمرانية في العصر العباسي الأخير، مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية، المجلد (11)، العدد (21)، العراق، 2012، ص 40 – 50، ص 40.

33) أبو عبدالله شمس الدين محمد الشافعي المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سابق، ص120.

******** السلاجقة هم من القبائل التركية البدوية القادمة من بلاد ما وراء النهر، وهم مسلمون متشددون من اتباع المذهب الحنفي إلّا أنّهم سلبوا السلطة من الخلافة العباسية، للتفاصيل ينظر: علي فرحان زوير، تدهور أوضاع بغداد العمرانية في العصر العباسي الأخير، مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية، المجلد (11)، العدد (21)، العراق، 2012، ص 40 – 50، ص 41.

34) علي فرحان زوير، تدهور أوضاع بغداد العمرانية في العصر العباسي الأخير، مصدر سابق، ص42 – 43.

35) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن عبد الكريم الشيباني ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء (10)، القاهرة، 1885، ص55.

36) علي فرحان زوير، تدهور أوضاع بغداد العمرانية في العصر العباسي الأخير، مصدر سابق، ص 42 – 44.

37) شهاب الدين أبو عبدالله بن ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء (4)، مصدر سابق، ص 411 – 413.

38) علي فرحان زوير، تدهور أوضاع بغداد العمرانية في العصر العباسي الأخير، مصدر سابق، ص 46.

39) أحمد عبدالباقي، سامراء عاصمة الدولة العربية الإسلامية في عهد العباسيين، مصدر سابق، ص203.

40) يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ مدينة سامراء، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مطبعة مجلة صوت الإسلام، بغداد، بلا سنة، ص26.

********حاضرة: هي المدينة الكبيرة ومقر الخليفة ومنها تُدار أمور الدولة السياسية والإدارية والعسكرية، للتفاصيل ينظر: أعياد عبد الرضا عبد آل، وسالم عبدالله جاسم، البعد الجيوبولتيكي لنقل عاصمة الدولة العربية الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد (21)، العدد (87)، الجامعة المستنصرية، 2015، ص 403.

41) أحمد عبدالباقي، سامراء عاصمة الدولة العربية الإسلامية في عهد العباسيين، مصدر سابق، ص205 – 207.